

وقف مع موقف جماعة الإخوان المسلمين من التوحيد

عرضت في الفصل السابق خلاصة ما فهمته عن حقيقة الإسلام انطلاقاً من كتابات مفكري مدرسة الإخوان المسلمين. عرفت من هذه الكتابات أن الإسلام دين ودولة، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وأنه نظام سياسي واجتماعي وقانوني، وأن العمل لإقامة المجتمع المسلم، والدولة الإسلامية، واجب على كل مسلم، وبذلك طغت المقاربة السياسية والحركية، وتقدمت على ما سواها.

وقلت: إنني أعدت النظر بعد استقالتي من حركة النهضة التونسية في منهج العمل الحزبي باسم الراية الإسلامية في مجتمع مسلم، وبدا لي أن أضراره على الإسلام والمجتمع أكثر من منفعه.

لكنني لم أراجع موقف المدرسة الإخوانية من التوحيد إلا في ضوء مناقشات برنامج ”الحوار الصريح بعد التراويح“، وإلحاح صديقي الذي لقيته في موسم حج عام ١٤٢٣ هجرية، ٢٠٠٢ ميلادية، وهو الذي ظل يكرر لي على مدى سنوات أن التوحيد أعظم شأن في الإسلام، وأن

من أكبر ما أعاق تجربة الإخوان المسلمين في نظره غفلتها عن هذه الحقيقة.

عدت للبحث في أمر لا يحتمل المجاملة، ولا يقبل إلا الصدق مع النفس ومع الناس، لأنه متصل بخالق الخلق ملك الملوك، من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

كيف يعرف الإخوان المسلمون جماعتهم؟

عدت إلى مصادر المدرسة الإخوانية. وأنقل هنا عرضا وافيا في التعريف بجماعة الإخوان، منشورا في موقع الجماعة في الإنترنت، تحت عنوان: من نحن؟

الإخوان المسلمون: «جماعة من المسلمين، ندعو ونطالب بتحكيم شرع الله، والعيش في ظلال الإسلام، كما نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكما دعا إليه السلف الصالح، وعملوا به وله، عقيدة راسخة تملأ القلوب، وفهماً صحيحاً يملأ العقول والأذهان، وشرعية تضبط الجوارح والسلوك والسياسات. أسلوبهم في الدعوة إلى الله التزموا فيه قول ربهم سبحانه: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥).

الحوار عندهم أسلوب حضاري، وسبيل الإقناع والاقتران الذي يعتمد الحجة، والمنطق، والبيينة، والدليل.

الحرية فريضة، وحق فطري منحه الله لعباده، على اختلاف ألوانهم وأسنتهم وعقائدهم، والحرية تعني حرية الاعتقاد، والعبادة،

وإبداء الرأي، والمشاركة في القرار، ومزاولة حق الاختيار من خلال الاختيار الحر النزيه، فلا يجوز الاعتداء على حق الحرية، أو حق الأمن، ولا يجوز السكوت على العدوان عليها أو المساس بها.

العلم دعامة من دعائم الدولة الإسلامية، والتفوق فيه واجب على الأمة، والعمل سبيل لتأكيد الإيمان، كما هو سبيل لتقدم الأمة، وتوفير كافة سبل الدفاع عن أمنها، والذود عن حرياتنا، وردع العدوان، وأداء الرسالة العالمية التي أوجبها الله عليها في تأكيد، وتثبيت معاني ومعالَم السلام، والتصدي للهيمنة، والاستعمار، والطغيان، وسلب أو نهب ثروات الشعوب.

أساس التعاليم، والمفاهيم، والأخلاق، والفضائل، والقوانين، والتركيبات، والضمانات، والضوابط، والإصلاحات كتاب الله، وسنة رسوله اللذان إن تمسكت بهما الأمة فلن تضل أبداً.

والإسلام في فهم الإخوان المسلمين انتظم كل شؤون الحياة لكل الشعوب، والأمم في كل عصر، وزمان، ومكان، وجاء أكمل وأسمى من أن يعرض لجزئيات هذه الحياة، خصوصاً في الأمور الدنيوية البحتة، فهو إنما يضع القواعد الكلية لكل شأن، ويرشد الناس إلى الطريقة العملية للتطبيق عليها، والسير في حدودها.

وإذا كانت الصلاة عماد الدين، فالجهاد ذروة سنامه، والله هو الغاية، والرسول هو القدوة والإمام والزعيم، والموت في سبيل الله أسمى الأمانى.

وإذا كان العدل هو أحد دعائم الدولة في مفهوم الإخوان، فإن

المساواة واحدة من أهم خصائصها، وسيادة القانون المستمد من شرع الله؛ لتحقيق العدل يؤكد على المساواة.

العلاقة بين الأمم والدول هي علاقة التكافل والتعاون وتبادل المعرفة، وسبل ووسائل التقدم على أساس النديّة، ولا مجال للتدخل، كما أنه لا مجال لفرض النفوذ والهيمنة والسيطرة أو تهमيش ومصادرة حق الآخر.

والإخوان المسلمون جماعة تلتقي عندها آمال محبي الإصلاح، والشعوب المستضعفة، والمسلمين المصادرة حقوقهم.

إنهم دعوة سلفية، إذ يدعون إلى العودة إلى الإسلام، إلى معينه الصائفي، إلى كتاب الله وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- وطريقة سنية، إذ يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة في كل شيء، خاصة في العقائد والعبادات.

وهي حقيقة صوفية، يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، وسلامة الصدر، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والأخوة فيه سبحانه.

وهم هيئة سياسية، يطالبون بالإصلاح في الحكم، وتعديل النظر في صلة الأمة بغيرها من الأمم، وتربية الشعب على العزة والكرامة.

وهم جماعة رياضية، يعتنون بالصحة، ويعلمون أن المؤمن القوي هو خير من المؤمن الضعيف، ويلتزمون قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «إن لبدنك عليك حقاً»، وأن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن

تؤدي إلا بالجسم القوي، والقلب الزاخر بالإيمان، والذهن ذي الفهم الصحيح.

وهم رابطة علمية وثقافية، فالعلم في الإسلام فريضة يحض عليها، وعلى طلبها، مهما كلف الأمر، والدولة تنهض على الإيمان.. والعلم.

وهم شركة اقتصادية، فالإسلام يُعنى بتدبير المال وكسبه، والنبى - صلى الله عليه وسلم - يقول: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» (ومن أمسى كالأمن عمل يده أمسى مغفوراً له).

كما أنهم فكرة اجتماعية، يعنون بأدواء المجتمع، ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها.

هذا الفهم للإسلام يؤكد على شمول معنى الإسلام، الذي جاء شاملاً لكل أوجه ومناحي الحياة، ولكل أمور الدنيا والآخرة.

(الرابط لهذا النص في شبكة الانترنت:

<http://www.ikhwanonline.com/Article.asp?ArtID=120&SecID=0>

إذا أردت أن تتصف شخصا سمعت دعواه منه مباشرة. وهذا النص هو تعريف الإخوان المسلمين لدعوتهم في منبرهم الإعلامي كاملا دون نقصان. وهم في هذا النص دعوة سلفية وطريقة سننية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية وثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية.

أولوية السياسة عند الإخوان

واضح أن الجماعة تريد أن تمثل اتساع الإسلام وشموليته. وسبق النقل أن الإخوان «يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة في كل شيء، خاصة في العقائد والعبادات». لكن إذا أراد المرء ترتيب الأولويات في هذه التعريفات الكثيرة، فإنه ينظر إلى ما قدمته الجماعة في تعريفها لنفسها، وهي قدمت الدعوة والمطالبة بحكم الشريعة، والعيش في ظلال الإسلام، وقدمت فهمها لأسس الدولة الإسلامية المنشودة: الحرية والحوار والعلم والعمل والعدل والمساواة وضمنان قدرة الدولة الإسلامية «الدفاع عن أمنها، والذود عن حرياتها، وردع العدوان، وأداء الرسالة العالمية التي أوجبها الله عليها في تأكيد، وتثبيت معاني ومعاليم السلام، والتصدي للهيمنة، والاستعمار، والطغيان، وسلب أو نهب ثروات الشعوب».

هذا التقديم يشير بوضوح إلى أولوية العمل السياسي وأهميته عند جماعة الإخوان المسلمين. ومسيرة الإخوان المسلمين في عهد مؤسسها الأستاذ حسن البنا -يرحمه الله- تدل أيضا على أولوية العمل السياسي العام، ومسيرتها من بعده أيضا، سواء من خلال دعم حركة الجيش في يوليو ١٩٥٢م أو من خلال الصدام معها بعد ذلك، ومن خلال الممارك السياسية والانتخابية للجماعة في عهد الرئيسين أنور السادات وحسني مبارك، أو في تجارب إخوانية أخرى خارج مصر.

نقلت التعريف من الموقع الرسمي لجماعة الإخوان المسلمين. وتأملت في محتويات الموقع، ظهر الأحد الخامس من يوليو ٢٠٠٩، تحت

هذا العنوان الإلكتروني:

<http://www.ikhwanonline.com>

وجدت في القائمة الرئيسية هذه الأبواب: رأي الإخوان، أخبار الجماعة، فلسطين الآن، آخر الأخبار، برلمانيات، البنا والإخوان، حوارات وتحقيقات، روضة الدعاة، واحة الأسرة، عرب وعجم، ثقافة وفنون، شباب وجامعات، آراء حرة، ملفات خاصة، مواقع مختارة، مجتمع الإخوان، بوابة المعتقلين، المضحكخانة، صوتيات ومرئيات، وتراث الإخوان.

كل الأخبار المنشورة في الصفحة الرئيسية ذات طابع سياسي. وعند فتح باب "روضة الدعاة" وجدت فيه عددا من المقالات بعضها عن فضيلة شهر رجب، وعن الرحمة، والورع، ووجدت ركنا اسمه دراسات وقضايا يتضمن مقالات عن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، والاستثمار في البورصة، وحكم قبول الحديث الضعيف في فضائل الأعمال. ووجدت بابا عنوانه "زاد الداعية"، فيه مقال عن الحديث النبوي "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها"، ومقالات أخرى عن التحذير من إهمال النفس، وعن الحياء، وأثر الابتسام في الحياة. ووجدت بابا للفقهاء عنوانه "أسألوا أهل الذكر" يتضمن مقالات عن حكم الظهار وسب الدين والديار وحكم العمل في المصارف الربوية.

هذه أهم العناوين في كل باب تصفحته داخل ركن "روضة الدعاة". وتصفحنا أيضا ركن "تراث الإخوان" فوجدت فيه كلمات ووصايا لعدد من قادة الجماعة ورموزها، وعددا من الكتب، منها

مذكرات الأستاذ عمر التلمساني - يرحمه الله-، وكتاب: نساء في دروب الإخوان المسلمين، وكتاب: الإخوان المسلمون في سجون مصر.

ثم بحثت في الموقع عن كلمة "التوحيد". فظهرت لي النتائج في ثلاث صفحات، أكثرها مرتبط بحركة التوحيد والإصلاح المغربية. ووجدت مقالة للمرشد الأستاذ محمد مهدي عاكف بعنوان "أمة التوحيد"، كتبت بمناسبة الحج وتتضمن دعوة للوحدة الإسلامية، ومقالتين أخريين عن الحج في ظلال التوحيد، كما وجدت مقالة بعنوان: تجريد التوحيد لله (شرح الاصول العشرين) للأستاذ جمعة أمين وفيه حديث عن الموقف من الإلهام والكشف والرؤى.

الخلاصة أن الموقع إخباري سياسي في المقام الأول، يعرف بالجماعة وأهدافها وسياساتها، وفيه أيضا مادة تربوية دعوية قدمت نماذج منها. وواضح أن الحديث في التوحيد وبيانه بشكل دقيق والتحذير مما يفسده أو يمس من صفائه ونقائه ليس أمرا ذا أولوية عند القائمين على الموقع.

وقد أشرت أكثر من مرة إلى أن غالبية الإسلاميين الحركيين لا يجول بخاطرهم الحديث في أمر التوحيد، ليس لأنهم يردون أهميته، ولكن لأنهم يعتبرونه أساس الدين ومنطلق الإسلام، ولا يرون حاجة للتركيز عليه وتقديم الحديث عنه في سلم الأولويات.

هكذا قادت الممارسة العملية أغلب الإسلاميين الحركيين في العالم العربي إلى إهمال أمر الدعوة للتوحيد وإهمال واجب الدعوة إليه وبيان خطر الممارسات والأفكار التي ربما تفسده أو تقود للانحراف في فهم حقيقته ومقتضياته.

الممارسة الإخوانية مقابل تعاليم المؤسس

وللإنصاف أقول: إن هذا التوجه الذي سجلته جاء مخالفاً لنصوص وآراء واضحة وثابتة مأثورة عن مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، الأستاذ حسن البنا -يرحمه الله-. لقد أولى البنا التوحيد وأمر العقيدة الصحيحة مكانة رفيعة ضمن الأصول العشرين التي وضعها للجماعة، وأنقل هنا عشرة منها:

الأصل العاشر

معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يلحق بذلك من التشابه نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ويسعنا ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ء كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧)

الأصل الحادي عشر

وكل بدعة في دين الله لا أصل لها استحسناها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها.

الأصل الثاني عشر

والبدعة الإضافية والتركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي لكل فيه رأيه ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان.

الأصل الثالث عشر

ومحبة الصالحين والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قرابة إلى الله تبارك وتعالى والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس ٦٣) والكرامة ثابتة بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم أو بعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم.

الأصل الرابع عشر

وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ولكن الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداؤهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشديد القبور وسترها وإضاءتها والمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ولا نتأول لهذه الأعمال سدا للذريعة.

الأصل الخامس عشر

والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله تعالى بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة.

الأصل السادس عشر

والعرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصودة بها والوقوف عندها كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء.

الأصل السابع عشر

والعقيدة أساس العمل وعمل القلب أهم من عمل الجارحة وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعاً وإن اختلفت مرتبتا الطلب.

الأصل الثامن عشر

والإسلام يحرر العقل ويحث على النظر في الكون ويرفع قدر العلم والعلماء ويرحب بالصالح والنافع من كل شيء، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

الأصل التاسع عشر

وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر ولكنهما لن يختلفا في القطعي فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار.

الأصل العشرون

لا تكفر مسلماً أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض برأي أو بمعصية إلا إن أقر بكلمة الكفر أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة أو كذب صريح القرآن الكريم أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر. (انتهى النقل هنا من الأصول العشرين)

هكذا وجّه مؤسس جماعة الإخوان المسلمين يرحمه الله. وما من شك أنه أصاب كبد الحقيقة في قوله ” معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام “. وقد وفقه الله تعالى في تبني عقيدة الإسلام السمحة الصافية وتلخيصها في جمل موجزة واضحة لا لبس فيها ولا غموض ولا تعقيد.

وينبني على هذه الأصول أن المنتسب لجماعة الإخوان المسلمين عليه الالتزام بهذه الأصول الواضحة في العقيدة. وقد سمعت من بعض قادة الإخوان المسلمين احتجاجا قويا بهذه الأصول، وقد استدلت بها على أن الإخوان ملتزمون بعقيدة التوحيد الصحيحة، مبتعدون عن مواضع الشبهة في طريقة التعامل مع الأضرحة والأولياء أو في صيغ الدعاء.

هذا احتجاج يقبل من أصحابه. لكنه لا يلغي الحقيقة التي فرضتها الممارسة الميدانية، والتي جعلت أبناء مدرسة الإخوان المسلمين يولون أكثر جهدهم ووقتهم للسياسة والانتخابات والنقابات والعمل الاجتماعي والخيري.

فإذا استحضر المرء حقيقة موضوعية أخرى، وهي أن مصر التي نشأت فيها جماعة الإخوان المسلمين من البلاد التي توجد بها أضرحة مشهورة كثيرة، يزورها ملايين الناس للتبرك والدعاء، ويندرون لها، ويدفعون فيها الأموال، ويعظمونها، فإن ذلك يعطي حجة قوية للذين ينتقدون الإخوان المسلمين ويتهمونهم بخلط الأولويات وإهمال أعظم أمور الدين.

مقارنة بين الجهود المبذولة في الانتخابات

والجهود المبذولة في نشر التوحيد

سمعت من منتقدي جماعة الإخوان المسلمين من يقول إن الابتلاءات التي واجهتها الجماعة، والضربات التي تعرضت لها في مصر وفي دول عربية أخرى، ربما تعود إلى أن الإخوان لم يجعلوا بيان عقيدة التوحيد والذب عنها أولويتهم الكبرى كما يأمر بذلك الإسلام فتأخر عنهم نصر الله الذي وعد به العاملين في سبيله، بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧).

أما الإخوان فيقولون إن الابتلاءات التي واجهتهم واجهت كثيرين غيرهم من الدعاة إلى الله عز وجل عبر التاريخ، من باب الاختبار والتحصيص. كما أنهم يشيرون إلى مكاسب كثيرة حققوها وجعلت جماعتهم، في رأيهم، أهم الحركات الإسلامية وأكثرها تأثيرا في العالم العربي وفي بعض البلدان الإسلامية غير العربية.

لكن ربما يسلّم الإخوان المسلمون، بروح الإنصاف والقبول بالنصيحة المخلصة، أن مؤلفات كتابهم ومفكرتهم في موضوع معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أقل كثيرا من مؤلفاتهم في السياسة وفي تأريخ معاركهم مع خصومهم. ولعلمهم يقبلون أيضا أن جهودهم الميدانية في نشر معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أقل كثيرا من جهودهم التي يبذلونها في المعارك الانتخابية البرلمانية وانتخابات النقابات المهنية. كما أن المساحة المخصصة في منابرهم الإعلامية لبيان أهمية معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أقل كثيرا من المساحة المخصصة للحديث في السياسة وفي تاريخ الجماعة.

ربما يقبل الإخوان بهذا النقد وربما يرفضونه. وعلى كل حال فإن الفصل في وجهة هذا النقد أو انتفاء المبرر له مرتبط بالنظر إلى فهم توجيهات القرآن الكريم والنبى صلى الله عليه وسلم في أمر التوحيد. هل هو في هذه التوجيهات الركن الأهم والأساس الأول في الدعوة للإسلام والعمل به ومن أجله، أم هو أمر تم بيانه وتوضيحه، ولم تعد هناك حاجة لبيانه وتوضيحه من قبل الأجيال اللاحقة من المسلمين.

هذا النقد الذي يمكن توجيهه لجماعة الإخوان المسلمين، يجوز توجيهه أيضا لمدرسة حزب التحرير التي تجعل إقامة الخلافة الإسلامية أولوية المسلمين المطلقة وتربط كل خير آخر ممكن بها.

أما علماء الشيعة الإثني عشرية فمجال السجال معهم واسع أيضا، أولا حول مبررات الحديث عن التوحيد، وثانيا حول معاني التوحيد، وثالثا حول علاقة التوحيد بالدعاء والتوسل وبناء الأضرحة وزيارتها.

لندخل الآن إلى صلب الموضوع تماما، ونحاول بيان مكانة التوحيد في الرسالة الإسلامية؛ لنرى إن كان هناك مبرر لتوجيه النقد أو اللوم لجماعة الإخوان المسلمين وحزب التحرير وعلماء الشيعة أم لا.

